

العلم والشؤون الاجتماعية

بقلم الدكتور على مصطفى مشرفه بك

عميد كلية العلوم

في مصر اليوم حركة ونشاط يريان الى اصلاح شؤوننا الاجتماعية وتنظيمها . هذه الحركة وهذا النشاط صادران عن شعور بأن حياة الأمة الاجتماعية تتطلب الدرس وتتطلب العناية وتتطلب العمل . فالمجتمع المصرى في مدنها ، وعلى وجه الخصوص في قرانا . ليس على الحال الذى ترتضيه له عزتنا القومية . والأمر فيه لا تسير على المنهاج الذى تتوخاه أمة تحرص على أن يكون لها مقام معلوم بين الأمم المتحضرة . من هذا نشأ الشعور بأداجة الى الاصلاح ، ولأجل هذا تحركت النفوس ولأقلام ونشطت العقول والأيدى بغية العمل والتنظيم . هذه الحركة وهذا النشاط في حاجة الى توجيه . هما منبعثان عن حيوية الأمة أو عن قلبها . ولكن عقل الأمة وضميرها يجب أن يرسم الخطط ويهدى السبل . يجب أن يدبنا البواعث والغايات وأن يدركاها على حقيقتها كما يجب أن يتفهما المجتمع وأن يدركاه هو أيضا على حقيقته ، ثم عليهما بعد ذلك أن يوجها هذا النشاط وتلك الحركة نحو تحقيق الغايات المنشودة .

كانت العناية بشؤون المجتمع في الأزمنة السالفة تكاد تنحصر فيما يقوم به بعض الأفراد أو بعض الجماعات من أعمال البر والاحسان ، وكانت الدعوة في ذلك توجه الى القلوب أكثر منها الى العقول . فالغنى اذا نظر الى الفقير تأثر لحاله وأطعمه أو أعطاه شيئا من ماله ، والصحيح القادر اذا رأى المريض الضعيف آواه وساعده على الشفاء من سقمه . وقد نظمت بعض هذه الأعمال فنشأت الجمعيات الخيرية والملاجئ والمستشفيات . والباعث في كل هذا انما هو الرغبة في خير البشر أو حب الانسان لأخيه ما يحبه لنفسه . هذا الباعث كان ولا يزال من أهم البواعث على العناية بشؤون المجتمع ، وهو باعث يجب على كل مشغل بتنظيم الشؤون الاجتماعية أن يعطيه قيمته ووزنه . ثم حدث أن تنبه بعض المحسنين الى أن الفقر والمريض ليسا وحدهما هما اللذان يفتكان بالمجتمع بل أن الجهل أدهى وأمر ، فاتجهت الجمعيات الخيرية الى إنشاء المدارس ، وتألفت بعض الهيئات للعمل على رفع المستوى الفكرى والخلقى بين الطبقات الفقيرة في المدن والقرى . وتنبه البعض الى فائدة الألعاب الرياضية في المحافظة على سلامة

الجسم والنفس فتألفت اللجان والأندية الرياضية وأخذت تعمل على نشر الرياضة البدنية بين طبقات الأمة . ثم أدركت الدولة أن تنظيم الشؤون الاجتماعية أمر من الأمور التي تعنيها فأنشأت وزارة تختص به وتفرغ له . كل هذه الأمور قد حدثت وشاع خبرها بيننا فهي لا تحتاج مني إلى تعريف . وقد كنا في معظم هذه الأمور مسوقين إلى حد ما بقوة خفية تحركنا نحو هدف مبهم في نفوسنا نحسه ولا نكاد نقيبه . هذه القوة ناشئة عن حيوية الأمة التي هي مبعث هذه الحركة وذلك النشاط اللذين أشرت إليهما في أول كلامي واللذين يقترنان بالرغبة في إصلاح شؤوننا الاجتماعية .

أمامنا اليوم احتمالان . أولهما أن نستمر مسوقين إلى حيث لا نكاد نقبين ، ناركين أمر تطورنا الاجتماعي إلى الصدف تلعب بنا كيف تشاء وترج بنا في غياهب لا نبراس لنا فيها ولا هدى ، فإذا سئلنا عن هدفنا أو عن سياستنا الاجتماعية تحاشينا الإجابة واحتمينا وراء العبارات المأثورة ننقلها عن غيرنا من الأمم المعاصرة لنا أو عن الأجيال السالفة منا ، وهذه هي العقلية الصقيمة أو العقلية غير العلمية . والاحتمال الثاني هو أن نحكم العقل والمنطق السليم فندرس المجتمع المصري دراسة علمية صحيحة ونقف على عيوبه وأدوائه ثم نرمم لنا سياسة رشيدة تصل بجمعنا المصري إلى ما نرجوه له من سعادة ورفاهية ، وهذه هي العقلية العلمية .

فالعلم هو قبل كل شيء وفوق كل شيء عقلية خاصة ، عقلية واقعية تنظر إلى الحقيقة المجردة في غير ما وجم أو تعام مهما تكن هذه الحقيقة مؤلمة أو ممضة ، ثم إذا هي استوعبتها وأدركتها حق إدراكها راحت تبني عليها أقوالها وأفعالها مستندة إلى التفكير السليم والمنطق الصحيح .

هذا إذن أول أثر للعلم في شؤوننا الاجتماعية ، وهو أثر كما نرى عميق يرتبط بالطريقة ذاتها التي نعالج بها هذه الشؤون وبالكيفية التي نبني بها سياستنا الاجتماعية .

وسينجم عن استخدام الطريقة العلمية في شؤوننا الاجتماعية أن نتعرف حقيقة تكوين المجتمع المصري من نواحيه المختلفة : من الناحية الاقتصادية وسوء توزيع الثروة بين أفرادها ، ومن ناحية الصحة والمرض وكيف أن الأمراض المستوطنة وغير المستوطنة تفك به فتكا ذريعا ، ومن ناحية التعليم ومقدار انتشار الجهل بين طبقاته . كذلك في دراسة عادات المجتمع نستطيع أن نتعرف العادات الاجتماعية التي تعمل على ازدياد الثروة والصحة والتعليم والعادات التي تؤدي إلى زيادة الفقر والمرض والجهل .

وكما أن العلم يهب لنا طريقة في البحث ومنهاجا في الاستقصاء ، فإنه في الوقت ذاته يساعدنا على حل المشكلات الاجتماعية التي نجد أنفسنا أمامها . لنأخذ مثلا مشكلة القرية المصرية

تلك المشكلة التي تستلقت نظر كل ذى عينين وتعتبر وصمة في جبين الأمة بأسرها . اننا اذا رجعنا الى الاحصاءات وجدنا أن أكثر من ٨٠ ٪ من الأموال العامة في مصر تصرف في المدن مع أن مجموع سكان المدن لا يصل الى ٢٠ ٪ من مجموع السكان . هنا يساعدنا علم الاحصاء على تفهم المشكلة من الناحية الاقتصادية وهو في الوقت ذاته يبين لنا الاتجاه الصحيح لحلها . أما عن الصحة والمرض ، فإن العلم الحديث عدا ما يضعه في أيدينا من وسائل لعلاج الأمراض ، يدلنا في الوقت نفسه على أن مجرد الاكثار من المستشفيات وأطباء العلاج لا يكفي ، فالمرض له أسباب وكثير من هذه الأسباب معروف ، واذن فبدلاً من أن نترك الناس يتعرضون للأمراض بلهملهم بأسبابها وجب على القائمين على شؤون المجتمع أن ينبهوهم الى هذه الأسباب وأن يرشدوهم الى كيفية تحاشي التعرض لها ، وهذا يكون بتعويدهم النظافة وبث الدعوة الصحية بينهم . وأما عن الجهل فمن نافلة القول أن العلم ضد الجهل فهنا يكون العلم ذاته هو الدواء ولا حاجة به الى أن يدلنا على دواء آخر لمشكلتنا الاجتماعية .

وكما أن الوقاية من الأمراض خير من علاجها بعد الوقوع فيها ، فإن الوقاية من الفقر خير من الإحسان الى الفقراء . وقد ظل الناس سنين متعاقبة يحسنون الى الفقير باعطائه شيئاً من مالهم ومع ذلك بقي الفقر منتشر بين الناس . ولا شك في أن التصديق ينشأ عنه اغتباط روحى عند المتصدق كما ينشأ عنه سدوقى لحاجة المتصدق عليه ، ولكن العلم لا يكتفى بمثل هذه الحلول الوقية ، فالفقر مرض اجتماعى يجب استئصاله على قدر الاستطاعة بتوفير عمل مناسب لكل قادر على العمل ودفع أجر كاف لكل عامل . هنا نجد العلوم الاقتصادية والعلوم الاجتماعية تهب لنصرتنا وتساعدنا على وضع سياسة اجتماعية رشيدة تعطى فيها لكل قادر فرصة العمل والكسب .

عند ما قرأت هذه العبارة الأخيرة على أحد أصدقائى قال لى فى شيء من الدعابة : "لقد صدقناك عند ما كنت تتكلم عن مداواة الأمراض والوقاية منها ومحاربة الجهل فكل هذه أمور يستطيع العلم أن يعالجها وله فضل مشهود به فيها ، أما عن الفقر فكيف يستطيع العلم أن يزيله ؟ كيف يستطيع العلم مثلاً أن يرفع مستوى معيشة الفلاح المصرى والثروة المصرية محدودة ونحن لا نتمتع على غير ثروتنا الزراعية ، فهل يستطيع العلم أن يخلق لنا الذهب أم ماذا ؟" قال لى ذلك كما ذكرت مداعباً ظناً منه أن العلم مهما ادعى لنفسه من مزايا فهو لن يدعى القدرة على خلق المال خلقاً . ومع ذلك فإن إنماء الثروة بل وخلقها إنما هو أثر من آثار العلم . وفى مصر على وجه الخصوص لا تزال ثروتنا المعدنية وخير المعدنية معطلة

لا نستفيد منها ، فالحديد كما نعلم قد كشف عنه بفضل العلم في مضقة أسوان ، واستنباط القدرة لشكهربائية من حركة المياه كسد أسوان وغيره وإنشاء الصناعات الكثيرة التي نستطيع بفضل العلم أن ننشئها ، كل أولئك وغيرها طرق خلق الثروة أو عبارة ضابط لإبراز الثروة الكامنة وتحويلها إلى مال يدفع عنا المنقر ويدر عليه الخيرات العديدة . فالثروة الحقيقية للأمة منشؤها عقول أبنائها وما يبذلون من المجهود المنتج للاستفادة مما حولهم من قوى الطبيعة ومواردها . وقد عاش الهنود الحمر في أمريكا أجيالا لم ينعموا فيها ببراء ، فلما دخلها أهل أوربا حولوا أراضيها إلى جنات وجعلوا منها أغنى بلاد في العالم .

وبعد فن أظهر العيوب في شؤوننا الاجتماعية البعد عن الترتيب أو انعدام النظام . فالقرية المصرية لا نظام لها في مظهرها الخارجي ، والمدينة المصرية ينقصها التنسيق ، وحياة الأسرة يموؤها التوقيت وحسن التدبير .

هذا العيب قد ظهر بوضوح لكل من سافر منا إلى بلاد الحضارة الغربية وقارن بين قراهم وقرانا ، بين مدنها ومدننا ، بين حياتهم وحياتنا . ولتفرق بيننا وبينهم في ذلك كبير وشاسع إلى حد يكاد يزعمه قينا إيماننا بأنفسنا ويحملنا على الاعتقاد بأننا ننقص عنهم في عنصر من عناصر تكويننا الرئيسية . غير أن شيئا من التفكير يدلنا على أن الأمر أهون من ذلك بكثير ، فانتفاء النظام من قرانا وعن مدننا وعن حياتنا إنما هو أثر من آثار انتفاء النظام من تفكيرنا وصورة من صوره . فالعقيدة المنظمة توجد الحياة المنظمة ، والعقيدة المخططة المبعثرة تنزع الاختلاط والمبعثرة . وهنا يظهر أثر العلم واضحا في الشؤون الاجتماعية ، إذ أن العقيدة العلمية إن امتازت بشيء فإنما تمتاز بحسب النظام وبالعقل على التنظيم : فالعقول التي تدرك قوانين الطبيعة وتقف على السنن المنظمة للكون ، بما يتجلى فيها من بدع التنسيق وجمال التألف ، هذه العقول لا يمكن أن ترضى بالعوضى في شيء مما حولها ، بل تعمل على إيجاد النظام في حياة الفرد وفي حياة الأسرة كما تعمل على تنسيق المظهر الخارجي للقرية إن كانت تعيش في القرية أو تعنى بأمرها ، وفي المدينة إذا سكنتها أو ارتبطت بها . فلتنشر العلم إذن في قرانا وفي مدننا ولنكسب الجيل الناشئ عقلية علمية منظمة فتكون بذلك قد قضينا على مرض من أفتك أمراضنا بالاجتماع ودأبنا عيا . من أظهر عيوبنا القومية . ومن العيوب الاجتماعية الظاهرة في مصر عدم الاتقان في العمل فالصانع لا يتقن صناعته والمعلم لا يتقن عمله والمخترع لا يتقن حرفه ، بل إن كثيرا من المتعلمين بيننا لا يتقنون إدارة الأعمال التي يديرونها . ولاتقان صفة من صفات العقل المدقق ، العقل الذي يطلب الكمال فيما يصنع والذي يفكر في الصغيرة والكبيرة فلا تفوته التفاصيل ولا يتهاون أو يهمل في أمر من الأمور صغر

هذا الأمر أو كبر . ومن لأمثلة اشاعة بين الانجيز أنه إذا كان عمل يستحق أن يعمل فإنه يستحق أن يعمل بإتقان . والإتقان مبنى على دقة الملاحظة وسلامة التفكير . ولا شك في أن لدراسات العلمية تنمى في المرء دقة الملاحظة . فالطبيعة أروع مثال من 'مثلة' الإتقان في الصنع . والذي يدرس الطبيعة بما فيها من موجودات منها ما صغر ودق حتى لا تراه العين إلا بمنظار مكبر ومنها ما هو دون ذلك من الذرات وأشباهها ، وبما فيها من نجوم وعوالم تفصل أبهدها إلى ملايين الملايين من الكيلومترات ، إن الذى يدرس كل هذا ويتعلم أن الخلية الصغيرة تكون الكائنات الكبيرة وأن العوالم العظيمة مؤلفة من ذرات ضئيلة بطريقة متقنة محكمة الصنع ، هذا الذى يدرس هذه الأمور ويتفهم أنها لا يستطيع إلا أن يعنى بكل صغيرة وكبيرة فيما يصنع وإلا أن يكون موفنا فى كل ما يفعل .

ليس أدل على فضل العلم وأثره فى تنظيم الشؤون الاجتماعية من أن الأمم التى أخذت به واهتدت بهديه قد أفلحت فى تنظيم هذه الشؤون والارتفاع بها من المستوى المنخفض الذى نجده فى الأمم المتأخرة إلى درجة من السمو تظهر واضحة لكل مطلع على أحوال الشعوب ملم بشؤونها .

ونحن فى مصر نحوج ما نكون إلى الأخذ بنتائج العلم فى ميادينه المختلفة والتشجيع بالعقلية العلمية كما نصل إلى ما وصل إليه غيرنا من رفع حال العامل والفسلاح وزيادة الثروة القومية ووقاية الشعب من المرض والفقر والقضاء على الجهالات التى تعبت بكيان الأمة وتحول بينها وبين القوة والعزة والفلاح .

ولقد ذكرت فى بداية هذا الموضوع أن من أهم البواعب على العناية بشؤون المجتمع ، الرغبة فى خير البشر أى ذلك الحب فى الخير الذى يمتاز به النفوس المطمئنة والذي هو أساس إيماننا بمصير البشرية . وإبنى إذ أنه هنا بفضل العلم فى تنظيم الشؤون الاجتماعية وتوجيه الجهود فى هذا السبيل ، أريد أن أنه فى الوقت ذاته بأن العقلية العلمية التى أشرت إليها يجب أن تقترن بتلك الرغبة فى الخير ، فهذه الرغبة يجب أن تحددو لعلهم عند ما يخرج إلى ميدان العمل ويهيم على شؤون البشر ومن اقتران هذين العنصرين تتولد الحضارة ويزدهر المجتمع ونصل بمصرنا إن شاء الله إلى ما نرجوه لها من سعادة ورفاهية .

على مصطفى مشرفة